رِسَالَةٌ فِي الطّرِيق
إِلَى دَعْوَتِنَا

م. رامي أحمد ملحم

1422هـ - 2002م

www.daawa-info.net

Melhem_rami@hotmail.com

الإهداء

إلى من قالها يوماً : (أحبّ النّاس للقلب وأقربهم إلى النّفس) ، وأودعها سويدائي نشيداً صادحاً عبقاً ، وسلّى النّفس عن بعد ، وأنشى القلب وسرّاه ... أهدي هذه المعاني ، لربّما عبرت عن بعض ما طاف في العقل وجال في الوجد ، ولا أظنّها .

راجياً من الله – عزوجلّ – أن يوفقنا لطاعته وأن يجمعني به في الفردوس الأعلى .

في الطّريق إلى الرّسالة

لا أتوارى إن قلت إنّه من نصاب القلب ، الذي لا ينبغي له أن يقل عن حدٍّ معينٍ ولا بأس بأن يزيد ، عرفته من زمنٍ ليس بالبعيد ، وكثيراً ما جاءني بأحوال مختلفة من الرضا والسّخط والثّقة والتّردد واليقين والشّك ، لسانه اغتراف قلبه لا تعرف المجاملة طريقاً إليه .

وكم كنت آنس بزياراته التي قلّما خلت من طرح المفيد والممتع ؛ خصوصاً فيما يتصل بالدّعوة المباركة أهدافاً وتاريخاً وواقعاً ورؤىً ، وكان نقاشه فسحة للعقل والقلب معاً ؛ يُكرمهُما أن يطوفا في أجمل بساتين الفكر والعلم والأدب والثّقافة .

ولن أنساها ساعة جاءني على غير عادته مُغاضباً ، يتلوّى ويتأوّه من عوالق سمعها وقرأها لم ير لها قلبه الرقيق سوى المفارقة بالحسنى وأن لا ننس الفضل بيننا ، فهدّأت من روعته ، وأنزلته منازل الرّحمن ، وتحدثنا مليّاً حتى انقلب مسروراً قرير العين دافىء النّفس بفضل الله تعالى .

ومن حينها وقع في نفسي أن أكتب له بعض المعاني والأفكار راجياً أن تكون له عظة وذكرى ، وباباً لتمتين ما بيني وبينه من الودّ الخالص والأخوة الصّادقة .... فكانت هذه السّطور .

توطئة

اقتضت مشيئة الله - سبحانه وتعالى – أن تكون الحياة الدّنيا دار العبادة والعمل لقوله تعالى : ((وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون))1 ، وأن يتحمّل الإنسان أمانة خلافة الله تعالى في الأرض ، ولذلك سُخر هذا الكون وهُيّء للعمارة ومُهد للخلق . ويبدأ الاستخلاف من أول بعثة آدم عليه السلام إنساناً رسولاً ، وينتهي حينما يرث الله الأرض ومن عليها ، إذ تنتهي الدّعوة ويقضي الدّعاة .

والدّعوة إلى عبادة الله – سبحانه وتعالى – قام على أمرها الرّسل ابتداءً لتبليغ رسالة السّماء الواحدة الثّابتة والدّاعية إلى أنّ لهذا الكون إلهاً واحداً متفرّداً بصفات الكمال والجلال ومنزّهاً عن النّقائص والأشباه ، وأنّ الله وحده المستحقّ للعبادة دون سواه . وكانت تمرّ على البشريّة أزمنة تنحرف فيها عن أمر ربها ورسالته ، فيبعث الله الأنبياء مذكّرين ومنذرين ومكمّلين للرّسالات ، إلى أن انتهى بعث الرّسل والأنبياء بموت سيّدنا محمّد – صلى الله عليه وسلم - ، لكنّ الدّعوة ورث أمرها الدّعاة والعلماء وستبقى إلى قيام السّاعة .

هذا حالنا

والأمّة – كما ترى - تعيش في أيّامها الأخيرة بين يديّ السّاعة ، يقوم على أمر دينها بعض الجماعات والأفراد المحارَبين حتى من بني جلدتهم ، و تعيش حال الهوان والضّعة ؛ فحكم الله معطل في واقعها ، والعقيدة متصدّعة في قلوب الكثرين ممن يُعدّون من أتباعها ، والفساد عمّ الأرجاء ، وهي أمّة تزحف في آخر الرّكب ، يتربّص بها الأعداء ، والدّعاة إلى الله حيارى ، وشياطين الإنس والجنّ لا يفترون يطلقون الإشاعات والأراجيف صدّاً للنّاس عن دينهم و ثنياً للدّعاة عن واجبهم .

وأخالك تعلم أنّه منذ منتصف القرن التّاسع عشر الميلادي بدأت تتهاوى الدّولة العثمانيّة والتي كانت تمثّل الخلافة الإسلاميّة ، ونجح اليهود في الرّبع الأوّل من القرن الماضي أن ينهوا هذه الدّولة . ليجد المسلم نفسه يعيش في مِزق ودويلات ، كلّ مزقة مستعمرة من دولة من دول العالم الكبيرة آنذاك ، وبدأت حركات التّحرر الشّعبية التي أفلحت في معظمها من طرد المستعمر من بلادها ، وإن كانت البلاد ما تزال تابعة لغيرها من قوى العالم المختلفة .

بشرى جديدة

في هذه الأجواء ، وفي ظلّ غياب دولة الإسلام العظيم ولدت الدّعوة الإسلاميّة المعاصرة والتي كانت تدعو إلى تحرير البلاد من نير أي استعمارٍ أجنبي وإلى إعادة حكم الله في الأرض ، وما هي إلا حلقة من حلقات الدعوة التي بدأت منذ زمن أب الأنبياء – عليه السلام - ، إلا أنّها نشأت في أصعب الظروف وأعقدها .

واليوم وبعد أكثر من سبعين عاماً من نشأتها نجد أنّها أضحت مشروعاً نهضوياً تواجه مشروعاً كبيراً يقف على رأسه اليهود ويُدعم من القوى العظمى التي نجحت الصهيونية العالمية في اختراقها وتوجيهها .

في طريقك إلى هذه الدّعوة لا بدّ وأن تعلم أنّ التّدافع بين الحقّ والباطل سنّة أزلية ، لا تختلف إلا أشكاله وأساليبه ، وأنّه كان إلى بدايات القرن المنصرم آخذاً شكل المصادمة المباشرة بين أتباع الرسالات السّماويّة الثّلاث ، وكان يتطلبّ هذا من الدّعاة خصوصاً العلماء منهم معرفة واطلاعاً على الدّيانات الأخرى ، ليردوا عن دينهم وليكسبوا له ، لذا كنت تجد في الدّاعية غير العالم باليهوديّة أوالنّصرانيّة خللاً كبيراً .

ولوحظ نشاطٌ واضحٌ موجّه من قبل المؤسسات اليهوديّة والنّصرانيّة لثني المسلمين عن دينهم بشتى الوسائل الممكنة ، كاستقطاب بعض المثقفين وتدريسهم وتنويرهم – كما يدّعون - ، أو إقامة المشاريع التعليمية أو الخيرية أو الطبيّة ، والتي ما تزال إلى الآن منتشرة في بعض المدن العربيّة كجامعات ومستشفيات وجمعيات ومراكز وغير ذلك.

إلا أنّه مع انتشار حركات التّحرّر في البلاد العربية ، واحتدام التّنافس والاستقطاب بين المعسكرين الكبيرين آنذاك ، وجدنا أنّ المدافعة تحوّل شكلها من مواجهات دينية عقدية مباشرة مع غير المسلمين ، إلى حربٍ فكريةٍ ضروس داخل هذه الأمّة ؛ إذ انتشرت الأحزاب والدّعوات ذات الأفكار والأيديولوجيّات المختلفة والتي كانت تنصّب نفسها نموذجاً للحكم وقيادة المجتمعات وكانت تنال من قدرة الإسلام على تغيير الأوضاع وقيادة الأمة وتحقيق آمالها ، مستقية أفكارها من مناهج الشرق والغرب مقتنعة أو ظانّة أنّها الأقدر على التّغيير وتحقيق مصالح المجتمعات ، وكان الدّعاة لا بدّ لهم من اطّلاع على تلك المناهج المنحرفة أيضاً ، حتى سقطت معظمها بحمد الله تعالى ، وتبيّن للأمّة أنّ دينها الوحيد القادر على قيادتها وتوحيدها ، و لكن بعد ردح من الزمن ليس بالقصير .

أمّا اليوم فالمدافعة بين المشروع الإسلاميّ وطليعته الحركة الإسلاميّة من جهة ، و المشروع الغربي وطليعته الصّهيونية العالميّة من جهة أخرى ، إلا أنّ معركة يقودها الغرب لا تستهدف – في ظاهرها - الإسلام مباشرة من حيث كونه ديناً ، بل تشكّك في تشريعاته وقدرتها على تحقيق الحياة الكريمة للنّاس ، وحفظ حقوقهم وحريّاتهم ، واحترام المرأة و المخالف ، ... وإلى غير ذلك . والدّعاة هنا مطالبون بفهم عميق لدينهم على مستوى المقاصد والكليّات أوالأحكام والتّشريعات ، وتجلية مكامن العطاء الإسلاميّ على مدى التاريخ .... . ومع عظم المكتبة الإسلاميّة واستيعابها إلا أنّه ما تزال بعض المواضيع ينقصها التوضيح والتأليف خصوصاً فيما يوجّه للناشئة عموماً .

---

[1] الذاريات ، آية 56 .

بعضهم أولياء بعض

في هذا العصر الذي يتوحدّ فيه الآخر لا بدّ لنا من العمل الجماعي المنظّم ، الذي يحفظ الدّعاة من الدنيا وزينتها ، ويؤمّن لهم المحضن الأمين للتّربية والإعداد ، والذي يجمّع الجهود ويكمّلها وينسّق بينها ، ويوجّه كلاً لما يتقنه ، ويتيح للاحق أن يبدأ من حيث انتهى السّابقون .

إنّنا نعيش عصر التّجمعات والأحلاف والأسواق المشتركة ، والآخر يتوحّد ويتعاون على اختلاف الاعتقادات واللغات والعادات والطّموحات وبل في ظل غياب القواسم المشتركة و الأغرب من هذا كلّه أنّ العداوات التّاريخيّة وأطول الحروب لم تقف في وجه هذا التّحزب والتّوحّد .

والله – عزّ وجلّ – أمرنا بالتّجمّع على أمر الدّعوة والدّين حين قال سبحانه : ((ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون))[2] ، وفي قوله تعالى : ((والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبيرٌ))[3] ، وليس المقام للتدليل ولو كان فهناك العشرات من الأدلة النّقلية فضلاً عن العقلية التي تؤكد وجوب العمل الجماعيّ المنظّم وضرورة التّوحد والتّجمع والتّعاون على أمر الدّعوة ، منبّهاً إلى أنّ هذا من الأمور التي أضحت ـ والحمد لله ـ راسخة مُتَجَاوزة .

دعوة التّجديد

إنّ المقيّم المنصف للدّعوة الإسلاميّة المعاصرة يلحظ أنّها قامت بإضافة الكثير إلى الفقه السّياسي في الإسلام ، بل تعدّت ذلك إلى التّجديد لأمر الأمّة بعد زمن غابت فيه شمس الإسلام العظيم ، ومن هذا التّجديد تغيير النّظرة إلى الإسلام من أنّه دين مقتصر على العبادات والمعاملات لا يلتفت إليه في دنيا النّاس إلى حالة نهضويّة في النّظرة يمثّل الإسلام فيها منهجاً للحياة وطموحاً للبشريّة ، بشموله ودقة تفاصيله وروعة أحكامه وصلاحيته لكلّ زمان ومكان ومخاطبته للعقل والرّوح معاً وبأنّه دين الفطرة القادر – وحده ـ على إسعاد النّاس بتعبيدهم ربهم ، وتأمين الحياة الكريمة لهم ، وإنّه دين الحياة كما أنّه دين الآخرة .

وقد تستغرب هذا لكن تلك كانت صورة الإسلام حتى في قلوب أصحابه أنفسهم ، و ما تراه اليوم من نظرة إلى الإسلام لم يكن في الماضي إلا أضغاث أحلام ، وأظنّ أنّ غياب دور العلماء كان سبباً رئيساً في ذلك ؛ فالعالِم أمست لقباً وظيفياً لا مسؤولية ريادية ، كما أنّ الدّور غير المُرضي للحركات الإسلاميّة التي كانت شائعة إذ ذاك والتي كانت مستغرقة في جزئيات أو منشغلة في مساجلات بينها

[2] آل عمران ، آية 104 .
[3] الأنفال ، آية 73 .

تاركة السّاحة لغيرها بالإضافة إلى جهد الآخر الدؤوب المتواصل كلّ ذلك أسهم في رسم صورة مشوّهة عن الإسلام وأهدافه قلباً على مستوى المقاصد والكليات ، وقالباً على مستوى الوسائل والاهتمامات .

المرأة الشريك

تجديدٌ آخر كان في مكانة المرأة ودورها ، ولن أكتمها شهادة أنّ الحركة الإسلاميّة المعاصرة كانت لها اليد الطولى في إنزال المرأة المسلمة المكان اللائق بها . حتى تلك العصور التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلاميّة وكانت الدولة الإسلاميّة الأولى بين دول المعمورة لم نر الدور الحقيقي للمرأة – كما كان عليه في حقبة النبوة والخلافة الراشدة - ، ولعلّ الخلفاء والولاة من بعد كان دورهم سلبياً في ذلك .

وأنت تبحث عن مكانة المرأة في الأسلام تتزاحم أدلّة كثيرة وشواهد مختلفة من القرآن الكريم والسّيرة العطرة ، إلا أنّك تجهد في البحث والتنقيب لتخرج بأمثلة على ذلك من التّاريخ ولو وجدت فإنّك لن تجد ما يناسب هذه الحضارة الكبيرة ويليق بها وبأمر ربها ، وأظنّها من المثلبات على تاريخنا ولا ضير أن نعترف بذلك .

أمّا هذه الدّعوة المباركة فقد وضعت المرأة في مكانها اللائق الذي أمر الله به – سبحانه وتعالى – شريكة كاملة للرجل في عمارة الأرض والاستخلاف لقوله تعالى : ((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إنّ الله عزيز حكيم))4 ، بل من المؤسف أنّ أزمنة كثيرة تعاقبت ما كانت قضية المرأة فيها إلا الحجاب ، وكأنّ الإسلام العظيم لم يتعامل مع المرأة إلا من خلال أنّها فتنة ، ولم يشرِّع إلا لعورتها وحجابها، وكأنّه لم يقرر حقوقها وواجباتها ومكانتها ، وتُجُوزت النّظرة الشّاملة قصداً من البعض وسذاجة وجهلاً من آخرين .

وكان للدّعاة المعاصرين فضلهم أن سدّدوا النّظر وأعادوه إلى ما يجب أن يكون عليه من شمولٍ وموضوعيةٍ ، و اليوم نجد المرأة الدّاعية الواعية للتّحديات والواجبات والعاملة في شتى ميادين العمل الإسلاميّ ؛ نجدها العالمة والمؤلفة والمربية والنّقابية والسّياسيّة والقياديّة والمجاهدة فضلاً عن كونها أمّاً أو زوجاً أو أختاً أوبنتاً ، والحق أنّ هذا تجديدٌ كبيرٌ استهدف نصف الأمّة أو يزيد .

وكان من أقسى ما وجهته الدّعوة للخصوم أن أحييَ دور المرأة في التغيير والحياة عموماً ، وأظنّ أنّ الحركة الإسلاميّة تزخر اليوم بطاقاتٍ نسائية عزّ نظيرها عند الآخرين .

العلماء طلائع الركب

إشراقة أخرى تمثّلت في إعادة الدور الحقيقيّ للعلماء وذلك بعد طول غياب دام ردحاً من الزمن ، وكما أسلفتُ أنّ العلماء كانوا يعيشون في بروجهم العاجيّة بعيداً عن الأمّة وواقعها ، بل إنّ المشيخة كانت عملاً مربحاً ، ولا أدلّ عن بعد العلماء عن الأمّة من قلّة التأليفات التي وُجّهت لعامة النّاس ، إذ التأليف والتّصنيف إنّما للعلماء والقضاة أنفسهم كحواشٍ وشروح وتعليقات ، و تمرّ السنون دون أن تجد لطلبة العلم من هذه الكتب نصيباً فضلاً عن عامّة النّاس ، و الذاكرة تحتفظ دوماً بأسماء العلماء المصلحين المبرّزين في كلّ عصر من العصور ، إلا أنّنا لا نستذكر إلا أسماء قليلة قدمت لدينها وأمّتها في تلك الأزمنة .

لكن ـ الآن ـ عاد دور العالم الحقيقي ، في قيادة الأمّة والتّأثير فيها ، واليوم هناك علماء كثر يعرفهم النّاس ، ويحسب لهم الحكّام ألف حساب ، ويخشاهم الغرب أشدّ خشية من الجيوش ، ولست مغفلاً دور الإعلام الحديث والتّقدم الهائل في تقنيات الاتصالات والذي كان لهما يدٌ في إشهار البعض ، إلا أنّ هذا لا يؤثر في حقيقة التّجديد في دور العلماء ، وما أدلّ على ذلك من ضخامة التّصنيف الموجّه إلى قضايا الأمّة اليوم . وإنّك تجد جهد العلماء في الدّعوة حاضرٌ وعلى مختلف المستويات والأصعدة .

نصرني الشّباب

إنّ من أنفع ما قدّمته الدّعوة للأمّة إعادة دور الشباب كنبضٍ وشريان حياة للمشروع الإسلامي المنشود وذلك بعد سنين عديدة عمل الآخر ـ من الخارج والدّاخل – فيها دَأباً على اختراق هذه الفئة و توجيه اهتماماتها نحو اللامضمون ، مسخرين كل ما من شأنه أن يسهم في ذلك من إعلام ومؤسسات ، ولك أن ترىَ كم أفادوا من الفنّ والرّياضة في ذلك .

ولا يخفىَ أنّه كان لدعاة الوطنية الصّادقة دورٌ طيّبٌ مبرورٌ في توجيه طاقات الشباب نحو مصالح الأوطان والشّعوب ، لكن ما أراه أنّ دعوتنا هيَ من شكّلت من جهد الشّباب على اختلاف فئاتهم و ومواقعهم من طلبة مدارس وجامعات ونقابيين وغيرهم دوراً حقيقيّاً في حياة الأمّة والمشروع .

عقيدتنا

أمّا آخر هذه التجديدات فهو طبيعة التّعامل والنّظر إلى العقيدة الإسلاميّة ، فبعد عقود من الزّمن سيطرت فيها المذهبية داخل أهل السّنّة والجماعة على أسلوب تناول العقيدة ، جاءت الدّعوة الإسلاميّة المعاصرة لتعيد الأمّة إلى إيمانها العذب الرّحب وعقيدتها العمليّة بعيداً عن المذهبية الضيّقة .

و الدّعوة الإسلاميّة انتشرت في زمن الأمويين والعبّاسيين حتى بلغت حدود الصّين شرقاً وفرنسا غرباً ، وكان لهذا الانتشار أن دخل في الإسلام أتباع كانوا متأثّرين بديانات وعقائد مختلفة ، تعتمد في غالبها على العقل والحجّة ولا مكان يذكر للغيبيات فيها ، ويستثنى من ذلك النّصرانيّة وبعض العقائد الأخرى ، فكانت الحاجة ـ في ظنّ البعض ـ أن تقدّم العقيدة ـ لا الإيمان – بطريقة كلامية عقليّة لتناسب الداخلين الجدد ولا تخرج أصحابها عن إيمان أهل السّنّة والجماعة .

---

[4] التوبة ، آية 71 .

والحق أنّه كان لهم فضلٌ كبيرٌ في الدفاع عن الإسلام وتثبيته في قلوب أتباعه ، مع أنّ ذلك كان له أثره على داخل هذه الأمة أن اختلف العلماء في هذا الإجتهاد بين مؤيّد ومعارض ودخلت الأمّة كما هو مشهور نفق المذهبيّة في التّعامل مع مسائل العقيدة لعقود طويلة ، وكان التّعصب من الأتباع له أكبر الأثر في ذلك .

ومن المؤسف القول إنّه إلى الآن ما تزال الدّعوة إلى المذهبيّة داخل أهل السنّة والجماعة يغذّيها ويقوم على أمرها جماعات ودعوات ، أمّا حركة الأستاذ البنا – رحمه الله – فقد فرّقت في تعاملها مع القضيّة بين إيمان أهل السنّة والجماعة وعقائدهم ، وأنّ الإيمان لا يختلف والعقيدة قد يُختلف في التّعامل مع بعض جزئيّاتها ؛ كونها قد تتحمل النّظرة العلمية الاجتهادية وإنك لا تكاد تجد كتاباً من كتب السابقين يصنّف تحت مسمّى العقيدة الإسلاميّة ، ودونك المكتبات ؛ إنّما تجد الواسطية والنّسفية وغيرها فكلّ ينسب لنفسه . وأتعجب ممن يصنّف كتاباً يسمّيه العقيدة الإسلاميّة أو عقيدة كلّ مسلم ويعرض فيه جزئيّات يعتقدها هو، إنّ هذا مثله كمن يصنف كتاباً في الفقه يعرض فيه رأيه ويسميه الفقه الإسلامي – مع البون بين رحابة الاجتهاد في الفقه وضيقه الشّديد في العقيدة - .

ما يجب أن يتأكّد لك أنّ الدّعوة لم تميّع النّظرة إلى العقيدة بل أعادت الأمّة إلى إيمان الجيل الأوّل من الصّحابة الكرام – رضي الله عنهم - والسّلف الصّالح - رحمهم الله - لا السّلفية المذهبية ، وتجاوزت مرحلة من تاريخ الأمّة اختلفت فيه الأمّة في الاجتهاد وكان لكلّ نصيبه من الأجر بإذن الله تعالى .

وهي لا ترى بأساً أن يكون في صفّها المذهبي المنصف كالسّلفي أو الأشعري أو غير ذلك ممّا هو مرضيّ في إيمان أهل السنّة والجماعة ، وإن كانت ترى أنّ فهم المذهبيّة السّلفية لمسائل الإعتقاد هوالأسلم والأحوط والأولى بالإتّباع كما قرّر الإمام حسن البنّا – رحمه الله - في رسالة العقائد والله أعلم .

نحن بشرٌ متنوعون

حقيقة لطالما غابت عن ذهن الوالجين إلى العمل الجماعيّ هي أنّ العاملين لدين الله تعالى إنّما هم بشرٌ متنوّعون فيهم القويّ والضّعيف ، والرّاحلة والمحمول ، ، والسّابق والمتأخّر ، والمكثّر من الأدب والمقلّ منه ، والهمام والمتقاعس ، والباذل والضّان و العالم والجاهل والكريم والبخيل و..... .

فظلمٌ وقصورٌ أن نتصوّر مجتمع الدّعاة وكأنّه مجتمع – ملائكيٌ -منزّهٌ عن الأخطاء أو حظوظ النّفوس ومصالحها ، أو أن نظنّ أنّ حياتهم جدّ كلّها ، أو نعتبر معاملاتهم كأرقى نماذج التّعامل الإنساني الذي انتهجه الصحابة الكرام ، فيكون المثال الحاضر هو ما عرضه ابن الربيع على أخيه ابن عوف - رضي الله عنهما - ، أو أن نتفاجأ بخروج ذاك القائد أو هذا العالم من صفّ الجماعة وأنّه ممّا لا ينبغي ، وأيّ مجتمع بشريّ فاضل انسلخ عن آدميته ونقصه ، ألا ترى أنّ الأخطاء والعثرات وجِدت في أطهر مجتمع وبين كنف النّبوّة الطّاهرة ، وأنّ بعض من آمن ارتد ، وأنّ المجتمع المدني كان فيه المنافقون .

لذا لزم أن نؤمن بالفكرة لا بالأشخاص ، وأن ندور في فلكها لا في أفلاكهم . كما أنّه علينا أن نقيّم الرجال بالحق فهم إليه ينسبون وبه يعرفون وبمقدار التزامهم به يَعزّون ويرتفعون .

دعوة السّعة لا التعصّب

لا بدّ أن تعلم أنّ من أبرز عوامل السّعة والمرونة في هذه الدّعوة أنّها لم تتبنَّ مذهباً فقهيّاً تدعو له أو تتعصب ، بل تتسع لكلّ رأي فقهيّ مقبول سواء ينضوي تحت مذهب معيّن أم لا ، لذلك نرى الاختلاف والتّنوّع الفقهيّ بيّنٌ بين أعضائها فهم ليسوا نسخاً بل لكلّ حرّيّته في أن يأخذ من أيّ عالم مقبول أو أن يتبنّى أيّ رأيّ محمود ، لذا ففي أتباعها الحنفيّ والمالكيّ والشّافعيّ والحنبليّ وما بينهم وغير ذلك .

فالدّعوة تكفل لأعضائها حريّة التّبني والتّقليد الفقهي المرضيّ في الشّخصيّ من الأمور ، وهي لا تلزم أحداً بتغيير رأيه في الحركيّات إنّما موقفه فيما يتّصل بقراراتها .

وهي تندب علماءها أن يكونوا مجتهدين ، كما تندب سائر أعضائها أن يكونوا متّبعين يحاولون الوقوف على الدّليل وفهمه والمقارنة بين الفتاوى لا أن يكونوا مقلّدين كالعامّة من النّاس ـ وإن كانوا هم باتّباعهم هذا أيضاً مقلّدين من النّاحية الأصوليّة ـ .

دعوةٌ للجميع

من أهمّ الخصائص التّي أكسبت الدّعوة الحيويّة والانتشار اهتمامها بجميع الفئات والطّبقات الرّجال والنّساء ، الشّباب والشّابّات ، الأغنياء والفقراء ، المثقفين وغيرهم ، الحسباء والوضعاء ، ... إلى غير ذلك ، ولعلّ الدّعوة انفردت عن غيرها من الدّعوات الإسلاميّة بمشاركة المرأة أخيها الرّجل تحمّل أمانة التّبليغ وقد سبق وأن أشرت إلى ذلك .

النّاس كإبل المائة

ميزة أخرى ألا وهي الانتقائيّة في الاختيار فالدّعوة لا تقبل في صفّها كلّ مقبل ، إنّما تصطفي وتنتقي فهناك شروطٌ للعضويّة ، والانتقاء حمى الدّعوة من تسرّب الضّعفاء و اختراق الأعداء وكم دعوة هدمها أعداؤها بالاختراق ، والدّعوة مكارةٌ كلّها وتكاليف لن يصلح لها إلا من هيّأ نفسه وعقله ورحه وعاطفته بل كلّه وكان من المواصفات على قدرٍ .

ولا يُفهم من ذلك استعلاء الدّعوة على الخلق ولكن اقتضت سنّة الله تعالى أنّ لكل وظيفةٍ متطلباتها والدّعوة أشرف الوظائف . والبعض كان يوجّه النّقد للدّعوة بسبب هذه الانتقائية مشيرين إلى أنّ النّبي الكريم – عليه الصّلاة والسّلام ـ ما ردّ عن دخول دعوته أحداً من

النّاس إلا في ظرف الحديبية المعروف ، وهنا سأنبّهك إلى الفرق بين الدّخول في الإسلام والدّخول في حركة تدعو إلى الإسلام وتقدّمه وتبشّر به .

المحضن الأمين

من ميّزات هذه الدّعوة تبنّيها منهجاً خاصّاً في التّربية والتّكوين ، هدفه توحيد الأفكار ، و صياغة شخصيّة الدّاعية الصّياغة الإسلاميّة المتكاملة ، وحفظه من الفساد المنتشر ، وتزويده ما يحتاجه في دعوته وحركته . وهذا المنهج له مضامينه المختلفة من أهداف ووسائل ومراحل ينتقل الدّاعية فيها من مرحلة إلى أخرى ، والتّربية فيها يقوم على أمرها أفراد معدّون لذلك .

نزوات الأفهام

إنّ البعض يختزل الدّعوة ودورها بقدر ما تقدم له من علمٍ شرعيّ في العقيدة والفقه والحديث والسّيرة والتّفسير وأصول الفقه وغير ذلك من ضروب العلم المختلفة ، وكأنّ الدّعوة جامعة والدّعاة فيها إما مدرّسون أو تلامذة ، أو أنّها مجمعٌ علميٌ أو فقهيٌ ، تدور فيه الآراء وتتلاقى وتتعارض في الأصول والفروع ... ، والحقّ أنّ الدّعوة ما هي إلا وسيلة وبابٌ من أبواب العمل الجماعي ، وما العلم إلا أحد أهمّ مواصفات الدّعاة وسلاحٌ هامٌ لا بدّ منه ، والدّعوة تجهدُ في تربية أفرادها وتثقيفهم وتعليمهم ما يهمّهم في أمر دعوتهم ، وكلٌ ورغبته في الاستزادة والتّضلّع .

وآخرون يظنّوها تكية للانقطاع للعبادة والتنائي عن النّاس ، فتراهم يخالون أنّ الدّعوة ما هي إلا مجموعات من العبّاد توضع لهم البرامج من صلاةٍ وصيامٍ ومكثٍ في المساجد وتنفل .

وآخرون يختزلونها في الخطابة والتدريس ولا يرونها إلا منبراً أو مهرجاناً أو صوتاً ضخماً وفنقلة رنّانة . ويقرأ البعض عن الأخوة وواجباتها وحقوقها فيخال الدّعوة ما هي إلا ديوانٌ أو نادٍ يقوم على زياراتٍ ودعواتٍ بين الإخوة بعضهم ، وآخرون يعتبرونها حزباً سياسيّاً محضاً يعقد النّدوات ويقارع الأحزاب والحكومات ويخوض الإنتخابات ويشارك هنا ويقاطع هناك... إلى غير ذلك من الظنون التي تنسجها النّفس وأهواؤها .

والحقيقة التي يلزم أن تكون ماثلة هي أنّ الدّعوة حركة دائبة شاملة داعية إلى الإسلام وبه مبشّرة ، وهي في حركتها تعنى بالعبادة والعلم والسّياسة والإقتصاد والأخلاق والجهاد و... ؛ إنّها تعنى بكل ما يسهم في هذه الحركة الدّائبة والكسب لهذا الدّين العظيم ولكن بتوازن واعتدال يحفظ الشمول ولا يفسده . واعلم أن الشّمول تبعيّاته كبيرة في التّربية والتّكوين ، وأنّ الفرق كبير بين الانحصار في قضية والتّوسع في قضايا .

الإمام المستهدف

كثيرة هي السّهام التي استهدفت مؤسس هذه الدّعوة – جزاه الله عنّا خير الجزاء – وإخوانه من قيادات وعلماء ورموز ، ومن أعجب ما سمعته اتّهاماً وجّه للرّجل أنّه كان يتلقّى مساعدات من الإنجليز للإنفاق على دعوته ، ونسيَ الأدعياء أنّ الرجل ما قُتل إلا بأمر الإنجليز ، وأنّ حركته كان لها الأثر الأكبر مع الوطنيين الصّادقين من أبناء مصر في طرد الإنجليز وفاروق ، كما أنّ جماعته كان لها جهدٌ مميزٌ في دعم المجاهدين في فلسطين وتعبئة الجماهير على الجهاد ، بالإضافة إلى أنّ كتائبهم كان جهادها مؤثّراً في الحرب ضدّ اليهود – صنيع الإنجليز المسخ – وذلك بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء ، فكيف بعد ذلك يستقيم مثل هذا الإدعاء !!! .

وكما يشير البعض إلى أنّ الإمام المجدّد حسن البنّا - رحمه الله -كان صوفيّاً في صباه ، يتردّد على شيخ له أفاد منه ، وأنّه كان يشارك الصّوفية بعض نشاطهم ، وأنّه مدحهم وغضّ الطّرف عن زلّاتهم وأخطائهم ، و هذا كان له أثره في فكر الجماعة ومنهجها التربوي خصوصاً .

إنّ الحقيقة التي ينبغي أن لا تغيب أنّ الأفعال والأقوال يجب أن لا تؤوّل بعيداً عن سياقاتها وحسن الظنّ والثّقة بالآخرين ؛ وكم أساء لشيخ الإسلام الإمام ابن تيميّة – رحمه الله - من أخذ أسطراً معدوداتٍ من كتبه وضلّله وكفّره وتناسى أن يؤول هذه الأسطر ضمن الآلاف من الصّفحات أو حتى ضمن ما هو مشتهر من سيرته المرضية – رحمه الله تعالى – ولو فعل ذلك لوجد عشرات الشّواهد التي يمكن أن تُفسّرَ هذه الأسطر من خلالها كما فعل غيره من المنصفين وطلاب المعاذير لا الهفوات .

إنّ الإمام البنّا أسّس دعوته وتجرّد لها ولم يتجاوز من السنّ الثّانية والعشرين ، وقبل هذا نشأ – رحمه الله تعالى – نشأةً صالحة في كنف والدٍ عالمٍ ، وكأيّ شابٍ مقبل على العبادة والعلم والدّعوة شَغِفٌ بهم ؛ رأى أنّ الصّوفيّة والزّوايا بابٌ من الأبواب الموجودة – والرّاسخة القدم آنذاك في مصر عموماً – فطرقها راغباً أن يجد ما يقنعه عبادةً وعلماً ودعوة إلا أنه لم يجد مبتغاه كاملاً .

و مجرّد مشاركة الإمام البنّا - رحمه الله تعالى – في صباه في غير نشاط مع الصّوفية ليس عيباً ولا منقصة في الإمام ، مع أنّه رحمه الله قرّر في مذكراته رأيه واضحاً في الصّوفية وذكر بعض ملاحظاته ، علماً أنّ من يتحدث عن هذه القضيّة إنّما يعتمد في غالب ما يعتمد عليه على كتاب مذكّرات الدّعوة والدّاعية ، والحقيقة أنّ الكتاب إنّما هو خطرات سريعة لم يقف الإمام فيها طويلاً لينـاقش ويشرح ويفصّل ويتحدّث في كلّ خطرة ومناسبة فليس هذا مقام المذكرات ولا موضوعها .

تصويب

ومن أراد الحقّ عليه أن ينظر إلى ما بناه الرّجل في منهج التّربية لجماعته ، ليرىَ أنّه منهجٌ فريدٌ ناصعٌ ينظم ويربي ويثقّف ، وكم هو البونُ بين منهجه في التّربية وبين الصّوفية ، وبين أحواله وأحوالهم ، وبين نتاجه التربوي ونتاجهم ، فشخصية الأخ المسلم واضحة لا تخفى ، لكن هذا لم يمنعه أن يكون منصفاً – رحمه الله - فيذكر الحسنات والهنات ، أو أن يستفيد من إرثهم المرضيّ فيما

ينسجم و السنة والبعد عن البدعة كتقريره بعض الأوراد والأدعية ، بل ما هذا إلا دليل الموضوعيّة والإيجابية فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقّ بها .

فبهداهم اقتده

كثيرٌ من دعاة اليوم لا يلتفت إلى إرث الأنبياء الكرام في الدّعوة والتّبليغ ، وكأنّه نافلة للدّعاة . ولا يعتبر إلا سيرة الرّسول العطرة -عليه الصّلاة والسّلام - هي المصدر الوحيد لفقه الدّعوة ، معتمدين على أنّ شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا ، أو أنّ فقه الدّعوة المحمدية ناسخٌ لما قبله ، مع أنّ النّاظر الفاحص يجد القرآن الكريم يحدّثنا عن دعوات الأنبياء والمرسلين في مساحات واسعة وفي قطع قرآنية مختلفة تتجاوز نصف القرآن الكريم بين التقديم والعرض والتّذييل للقصّة ، وأنّ الله – سبحانه وتعالى – كان يسرّي عن قلب الرّسول الكريم بقصَصِهم ويثبّت فؤاده بهم ، وأمره سبحانه بالإقتداء بهم في كل ما هداهم الله إليه من خلق أو فقه دعوة أو عمل صالح ، حين قال عزّ وجل : ((أولئك الذّين هدى الله فبهداهم اقتده))5.

أمر آخر أنّ العقائد والأخلاق ومنهج الدّعوة في كلّيّاته من الثّوابت التي لا تتغيّر ، أمّا المتغيرة فهي الشّرائع والأحكام والأساليب . وإلا ما قيمة أكثر من نصف القرآن الكريم !!! ، وهل منهج الأنبياء ليس للإقتداء والتّأسّي ؟! ؛ إن كان كذلك فلماذا يُذكر وبهذه المساحات الكبيرة وبمختلف الأساليب ؟! .

إنّ فقه الدّعوة إرثه عظيم يبدأ من دعوة أوّل الدّعاة سيّدنا آدم – عليه السّلام – ولا ينتهي إلا بموت آخر الدّعاة مروراً بدعوات جميع الأنبياء والمرسلين – عليهم السّلام - بما فيها دعوة سيّد البشر – عليه الصلاة والسّلام - ، والقرآن الكريم يعرض للدعاةً قصصاً متنوعة وتجارب مختلفة كي يفيدوا منها في دعوتهم .

والدّعوة الناجحة هي تلك القائمة على تقييم المجتمعات وحاجات الأمة ؛ كما كان الله – عز وجل – يبعث الأنبياء وينوع في معجزاتهم ،و الدّعاة دوماً في أشدّ حاجة للتّأسي بالرسل والأنبياء الكرام وذلك بصبرهم وجهدهم وكيف كانوا يدعون أقوامهم ويبلغونهم أوامر ربهم - جلّ وعلا - .

سؤال المحبّ والمبغض

سؤالٌ يطرحه المحبّون كما هم المبغضون - يُرمى أمام الدّعاة - ويحمل في طيّاته تشكيكات كثيرة وهو أنّ هذه الدّعوة قد أنشأت منذ أكثر من سبعين عاماً ولم تصل إلى الآن إلى إقامة دولة الإسلام ، فضلاً عن أستاذيّة العالم ، فما السبب في ذلك ؟ . ولا يمهلون ليعلل بعضهم فيقول لعله خطأ في المنهج ، لربما قيادة متواطئة ، لعلّها دعوة مخترقة وموجّهة من الأعداء ، ... ، وللإجابة على ذلك مطمئناً المحبيّن

وناصحاً المبغضين أننا يجب أن نتذكّر دوماً أنّ علاقة المسلم مع الله – سبحانه وتعالى- ، وأنّ كلاً منّا أتي ربّه فرداً فيسأله تعالى عمّا قدّم في دنياه ، وأنّ العمل المقبول هو ما كان مرضيّاً عند الله تعالى موافقاً لأمره ، أعجبَ النّاس أو لم يعجبهم .

إنّ ما أمرنا الله تعالى به هو أن ندعو الخلق للإيمان به وطاعته والتزام دينه ، استكمالاً لجهد الأنبياء الكرام ، هذا هو المطلوب من المسلم ومن الجماعة المسلمة ، أمّا الحكم بشرع الله تعالى فهو نتيجة وثمرة لمدى إيمان النّاس بالله وبدينه وبتمسكهم بشرع الله تعالى ، كما أنّه نتيجة لنجاح الدّعوة نجاحاً كليّاً ، وما أريد أن يتّضح لك هو أنّ التتويج السّياسيّ لإنجاز الدّعوة الإسلاميّة بوجود الدّولة الإسلاميّة هو جهدٌ تراكميّ للدّعاة بالإضافة إلى تيسّر الإمكانات وتوفّر الظّرف المناسب وإلى توفيق الله تعالى من قبل ذلك .

ولا يعني أنّ دعوةً من الدّعوات لم تصل إلى الحكم بالإسلام هو دليلٌ على خطأ منهجها أو عمالة قياداتها ، أو اختراقها وتوجيهها من الخصوم . لو كان كذلك لحكمنا على جل الأنبياء والمرسلين الكرام بالفشل أو التّقصير- حاشاهم - وهم من ذلك براء .

إنّ الحكم على الدّعوة بهذا الشّكل هو حكمٌ ظالمٌ جاحفٌ ، و يعجبني أن أمثّل لك ذلك بجامعة لا يتخرّج طالبها إلا بعد أن يقدّم مشروعاً للتّخرّج ويحصل فيه على درجة لا تقلّ عن 70% ، وهذه الدّرجة توضع بناءً على أمرين أولهما جهد الطّالب ومدى جودة مشروعه وإتقانه ويُعطى لهذا 50% ، وباقي النّسبة توضع في حال تبنّى أحدٌ هذا المشروع كمستثمر أو نحوه ، فقد يحصل أن ترى طالباً قد جدّ وبذل الوقت وأعمل النّهار وأسهر الليل وقلّب الكتب والرّسائل واستفرغ الجهد فأبدع في مشروعه من غير أن يجد من يتبنّى مشروعه فتوضع له 50% فقط ولا تعتبره الجامعة ناجحاً ، بالمقابل قد يقدّم آخرٌ مشروعاً هزيلاً ويتيسّر له أن يتبنّى أحدهم مشروعه اقتناعاً أو معرفة شخصيّة أو طمعاً في مصلحة تُجنى أو ... ، فيرسب الأولّ وينجح الآخر .

فيسأل سائلٌ عن نتيجة الطّالِبَين فيقال له : أمّا الأوّل فقد رسب في المشروع ولم يتخرج وأمّا الآخر فقد نجح وتخرّج ، فيسأل عن سبب رسوب الرّاسب ونجاح النّاجح فيقال له : أمّا الأوّل فقد أمضى عامه لاعباً مهملاً فقدّم مشروعاً ضعيفاً لم يقنع الجامعة فرسّبته ، أمّا الآخر فأمضى عامه جدّاً وعملاً و بحثاً فقدّم مشروعاً مقنعاً فنجح وتخرّج .

دليلٌ آخر على أنّ الوصول إلى الدّولة ليس مقياساً لنجاح الدّعوات أنّ دعوةً مثل الماركسية كانت في زمنٍ ملء الأرض والسّماء سمعة وصيتاً ، وسيطرت سياسيّاً وفكرياً على أجزاء ليست قليلة من العالم ، وكانت لها دولة عظمى ، ما لبثت أن تهاوت وكأنّها لم تكن من غير حرب عسكريّة أو حتّى مواجهة ، زالت وكأنّها سحابة وانقشعت ، وإنّك اليوم واجد أتباعها مهزومين شرّ هزيمة لا يجرؤ بعضهم أن يعلن عن هُويّته خزياً من دعوته .

يجب على الدّعاة أن لا يُزيّلَ لهم الشّيطان فيشكّكهم بأصوب أعمالهم . حتى لو كان التّأخير الحقيقي هو من ضعف القيادة والتّخطيط والتّربية و .... ، فالدّاعية معنيّ بأن يصلح دوماً ويقوّم الاعوجاج داخل دعوته وخارجها ، والبعض يسهم في محاولات الآخرين في الإجهاز على الدّعوة وهو لا يدري .

---

[5] الأنعام ، آية 90 .

لكم أرجو أن تحمِلَ كلماتي على خير المحامل وأن لا تفهمَ من ذلك أنّي لست عابئاً بأمر الدّولة ، أو أنّه يرضيني الدون من الإنجازات ، فوالله ليس بمسلم فضلاً عن داعية من لا يعمل لإقامة حكم الله في الأرض ، أومن لا يرجو أن تعود دولة الإسلام كما كانت في خير القرون ، لكن يجب أن لا تختلط الأمور علينا ، وتأخذنا العواطف على حين غرّة من العقل فنهدم ونحن نرجو البناء فنتأخر ونحن نرجو التّقدّم .

القياس الفاسد

والبعض يهوى القياس ولا يحسنه ، فتراه ينزل واقع الدّعوة الإسلاميّة في مكّة والمدينة وما تحقق وأنجز هناك إنزالاً حرفيّاً على واقع الدّعوة في العصر الحديث ، مغفلاً كثيراً من الإختلافات الجوهرية . ومن أمرنا أن نُنزلَ ليّاً وغصباً واقعاً على واقع ؟! ، ومن قال أنّ التّاريخ يعيد نفس الأحداث والظروف والتّحديات والفرص والإمكانات .

إنّ بعض المتسرعين من الدعاة لا يدركون أنّ واقعنا قد يكون الأعقد ، ذلك أنّنا نعيش في عالم يسوده الكفر ويدافع فيه عن الباطل وأهله قوى ضخمة هائلة ، استطاعت أن تفتّت بلاد المسلمين مزقاً ، وأن تتدخل في شؤونها ابتداءً من الحكم وانتهاءً بأتفه القضايا ، وأنّ الدّعاة يقومون على دعوة مسلمين أصحاب عقائد مشوبة مشوّهة ، ويعيشون في جوّ من الفساد مريع ، وأنّ بلاد المسلمين تابعة لغيرها من دول الكفر ، وترمي عن قوسها ، والإسلام – كما الدّعاة ـ محاصرٌ أشدّ الحصار ، وأنه لا مقارنة فيما يملكه الدّعاة من قدرات وإمكانات وفيما يملكه خصومهم .

ليس منصفاً من يتجاهل في تقيمه للدّعوات الواقع وما فيه من عوامل قوّة وضعف أو فرص وتحدّيات وأخطار، ويعتبر ما تمّ إنجازه في مرحلة من مراحل الدّعوة هو الحكم على الدّعوات والدّعاة حتى لو كانت هذه مرحلة أطهر الخلق وأشرفهم .

القوّة والتّغيير

استخدام القوّة في الدّعوة والتّغيير ، قضيّة تؤرّق كثيراً من الدّعاة الإسلاميين حاليّاً ، وهل استخدامها هو عنفٌ مرفوضٌ دائماً ؟ أم جهاد مقدّس مطلوب دائماً ؟ أم أنّ لاستخدامها أحكاماً خاصة ؟ .

وقبل الحديث عن هذه القضيّة لا بدّ من الاقتناع بأنّ سياسات الدّعوة وفقهها يختلف من حال إلى آخر ، فمرحلة التّعريف والتّبشير بالدّعوة تختلف عن مرحلة التّجميع والتّكوين ، وهذه تختلف عن مرحلة الانتشار الواسع للدّعوة والإيمان الراسخ بها ، وهذه تختلف عن مرحلة استلقاء الدّعوة في قلوب النّاس وتمكّنها منهم . والدّعوة في هذا مختلفة عن الأحكام الشّرعية ، إلا أنّه من استقراء لمنهج الأنبياء والمرسلين عموماً ولمنهج رسولنا الكريم على وجه الخصوص ، نجد أنّ القوّة الماديّة لم تستخدم كأداةٍ في الدّعوة والتّغيير في مرحلتي التّعريف والتّكوين ، حتى في أشدّ الظّروف على المسلمين ، والتّاريخ حَكَمٌ على ذلك .

ولم نجده عليه الصّلاة والسّلام يأمر أحداً من أصحابه أن يدافع بيده ولا حتى تلميحاً ، بل إنّ قتل سميّة – رضي الله عنها - قد تمّ بصورة تحرّك الحجر لا البشر، ولم نلحظ أنّ النّبي الكريم يأمر أحداً ولو خفية أن يردّ العدوان، وكان بالإمكان أن يكون هنالك ردّ ولا يُعلن عنه ويحسب أنّه عملٌ فرديٌّ محض ، لكن ذلك لم يتم فالنّبيّ الكريم يعلمنا منهجاً في وزن الأمور والتعامل معها ، وهذا دليل حرصه – عليه السّلام - على دعوته وأصحابه من أن يرموا وعدتهم قليلة لقمة سائغة أمام الكفار في هذه المرحلة المبدئيّة من عمر الدّعوة .

إنّ القوّة المستخدمة في هاتين المرحلتين هي قوّة العقيدة والإيمان ثمّ الوحدة والارتباط فقط لتبليغ النّاس رسالة ربهم ، وقد يلتبس على البعض أنّ الإمام حسن البنّا قد أنشأ النّظام الخاص في مرحلة مبكّرة من عمر الدّعوة ، وأنّ أفراد النّظام الخاص كانوا يتدرّبون على الأسلحة المختلفة . والحقيقة التي لا بد أن تعلمها أنّ الإمام الشّهيد قد أنشأ هذا النّظام لجهاد الإنجليز ومقاومتهم وتهديد مصالحهم وطردهم من مصر كما كان له دوره التّاريخيّ في قتال اليهود ، لا أن يستخدم في الدّعوة والتّغيير في هذه المرحلة المبكّرة ، لكن في اللحظة التي تنتشر الدّعوة وتتمكن في نفوس النّاس و تتهيأ للدّعاة أسباب القوّة الماديّة فهنا يُبدأ باستخدام القوّة العمليّة أو قوّة السّاعد والسّلاح دفاعاً عن العقيدة وأهلها وتأديباً للطغاة المعاندين .

إنّ بناء الدّولة ليس الضّابط في استخدام القوّة ، إذ أنّ الله أذن للمسلمين أن يدافعوا عن انفسهم قبل الإنجاز الكلي لمشروع الدّولة في المدينة المنوّرة ، حين قال تعالى ((أذن للذين يقاتلون بأنّهم ظلموا وأنّ الله على نصرهم لقدير))[6].

واعلم أنّ القوّة قد تفتح أرضاً أو ترد غاصباً لكنها لا تفتح قلباً ولا تهدي عاصياً ، وما انتشر الإسلام إلا باقتناع النّاس به وبدعاته وإن كان ذاك الانتشار يحتاج أحياناً إلى إفساح المجال له بالجهاد والقوّة .

والثّورة أيضاً

من أهمّ معالم هذه الدّعوة رفضها للثّورة كمنهج في الدّعوة والتّغيير ، فهي ترى أنّ الثّورات لا تصل إلى تغيير الإنسان إنّما إلى شكل الحكم وأشخاصه ، والإسلام مناط دعوته الإنسان نفساً وروحاً وعقلاً وكلاً ، ولا قيمة لتغيير يتجاوز الإنسان وأعماقه ، والتّغيير المطلوب هو للإنسان والحكم معاً ، والحقّ أنّ التّاريخ - ذلك الحكم الصّادق الكبير - لطالما برهن صحة هذا المعلم ودونك الثّورة البلشفيّة مثلاً ، والعارف بإيران يقرّ بأنّ الثّورة الإيرانية مع أنّها قطعت شوطاً في تربية المجتمع وتهيأته قبل قيامها إلا أنّها وبعد أكثر من عشرين سنة لم تصل إلى حقيقة الإيرانيّ ولم تغيّر كثيراً في نفسه .

ولا بدّ لك من أن تعلّم أنّ الله ميّز دعوته عن غيرها بمنهجها ودعاتها ، ويأسفني أنّ بعضنا قد تأثّر بمناهج الآخرين حتى غدا يبتعد عن قرآنه وما فيه من توجيهات وتجارب - وهو لا يشعر- ، فتراه يستشهد بتجارب الغير ويحاكيها ويعتبرها مرجعاً أكثر من استشهاده بكتاب الله وسنة رسول الله _ صلى الله عليه وسلّم - .

[6] الحج ، آية 39 .

مجالس الشّعب

المشاركة في مجالس الشعب المنتخبة والوزارات من الموضوعات التي كان حضورها بارزاً في السنوات الأخيرة . والحقّ الذي لا مراء فيه أنّها من القضايا الشّائكة والتي انقسم النّاس فيها إلى مجيز ومُحرِّم وموجب للمشاركة ، وتبنّت الدّعوة رأيها بالجواز في حال ترجّحت المصلحة ، وشاركت في غير مكان في مجالس الشّعب (البرلمانات) والوزارة ، وكان للمناصرين والمتعاطفين مواقف مختلفة من هذا الرأي فمن متحمسٍ مشجّع مباركٍ إلى معارض مستنكر إلى متردد متخوّف ، و الذي يجب أن لا يُجهل أنّ القضيّة أخذت حقّها كاملاً من النقاش و البيان الفقهيّ ودارت مناظرات وندوات مُكّن الجميع فيها أن يعرض رأيه ويدافع عن حجّته وألفت الكتب والرّسائل في ذلك أيضاً .

ولا تظنّنّي سأنبري دفاعاً عن رأيٍ من الآراء ، لكن ما أودّ الإشارة إليه أنّ موضوع المشاركة من المواضيع الخلافيّة ، والإسلام العظيم أسّس منهجاً عامّاً للتّعامل مع الخلافيات ، فمادام الاجتهاد يقوم على أمره العلماء المؤهلين الأمناء وما دام ضمن دائرة الخلاف المرضيّ وما دام يُستفرغ الجهد في الوصول إلى أصوب الآراء وأسلمها ؛ فلا خوف من نتيجته . ومن المؤكّد أنّ المتعصّب لا يرى إلا نفسه فهو في غرفة من المرايا كيفما نظر لم ير إلا ذاته.

كم هو عجيبٌ أمر بعض المتحمّسين أو قليلي العلم والخبرة الذين يسخرون من اجتهادات العلماء وينصّبون من أنفسهم آلاتٍ تقذف العلماء المجتهدين بأقبح الأوصاف ، وكنت من زمن اطلعت على أوراق كتبها أحدهم يردّ فيها على فتوى الحركة الإسلاميّة بجواز المشاركة في الوزارات والبرلمانات إذا ترجّحت المصلحة ، فرأيت عجباً ؛ رأيت استهتاراً بالدّليل وتحقيق مناطه ، وكم كنت آملُ أن أقرأ اجتهاداً علمياً يقارع فيه الدّليل بالدّليل ويردّ على تأصيل العلماء بتأصيل مشابهٍ لا كلاماً إنشائياً وشتماً وأذىً لا يمتّ لخلاف العلماء المجتهدين أوللموضوعيّة والعلميّة بصلة ، فلنتق الله ولنحذر.

إنّ الدّعوة ليست ميداناً لتسجيل المواقف ، وليس الدّعاة لاعبين ينتظرون التّشجيع والتّصفيق أويقدّمون ما يطلبه الجمهور ، والدّعوة تميّز بين مقتضيات العصر وأهواء العصر فالمقتضيات مرعيّة والأهواء مرميّة ، والحقيقة أنّ حركات التّحرر أثّرت في بعضنا ؛ حتى أضحت إنجازاتها منطلقاً فكريّا يعتمد عليه البعض كما أسلفت متجاوزين في ذلك دين الله تعالى وسنّته في التّدافع بين الحقّ والباطل.

ويجب أن تعلم أنّ الدّعوة تفاخر بعلمائها فسمعتهم ملء الأرض والسماء ، والاجتهاد داخل الحركة نوعيّ يقوم على أمره علماء مختلفون في تعلّمهم و بيئآتهم وتجاربهم ومشاربهم ، و المصلحة يقررها أهلها من ذوي العلم الشّرعيّ والخبرة العملية بالدّعوة وظروفها و الواقع ومقتضياته .

الحجّة بالحجّة

قناعة لا بدّ أن تكون راسخة لديك هي أنّ الأفكار والمبادئ لا يُنتصر عليها باستخدام القوّة ضدها أو ضد أصحابها ، بل إن أوار أيّ دعوة يشتد بالمحاصرة والتّعذيب والاضطهاد ، قد يُسقط الفرادى لكن ستقتنع الجماعات ، ولك أن تأخذ من الأمثلة ما تشاء ؛ فكم جَهد أتباع المالكيّة في محاربة الظاهرية من أتباع ابن حزم وتحريق كتبهم إلا أنّ ذلك لم يزدهم إلا انتشاراً وتمسّكاً بمذهبهم ، وكم وقف الحكام وعلماؤهم في وجه شيخ الإسلام ابن تيميّة وأتباعه ولم يزد العامّة ذلك إلا حبّاً لشيخهم وتقديراً له ، بل إنّه سُجن في فتوى الطّلاق البائن ستّ سنوات ، وها هي اليوم كلّ المحاكم الشّرعية في العالم الإسلاميّ تتبنى فتواه وتقضي بها!! ، ثمّ إن دولة بني العبّاس في مرحلة من المراحل جيّشت ولاتها وزبانيتها -من العلماء - لمجابهة الإمام أحمد بن حنبل في فتنة خلق القرآن ولكن من كان المنتصر ؟؟ .

وفي العصر الحديث صبّ الطّاغية عبد النّاصر عذاباً على جماعة الإخوان المسلمين وأعمل فيهم قتلاً وتشريداً وتنكيلاً كان من نتاجه أن انتشرت دعوتهم في أرجاء المعمورة ولم يزد هذا الدّعاة إلا تمسكاً بدعوتهم وتفانياً في سبيلها .

إنّ العقائد والأفكار والمبادئ لا تقاوم إلا بالحجّة والحكمة ، ومن المحال أن تجتثّ بغير ذلك ، فهي لا تعرف الاستقواء على حقٍّ كانت أو باطل ، والحقّ أبلج .

خطرات وعبرات

إنّ من أدق دلائل الإنتماء إلى الدّعوة التّجرّد لها ، ونقاء القلب من الإيمان بغيرها ، والإنتمار بأمرها وإن خالف الهوى ، وإن أغضب الأب والولد والعشيرة والنّاس . والبعض يرى في هذا الإنتماء والولاء تعارضاً مع الإنتماء لله ودينه ، أو أحياناً يشعر البعض أنّ هذا الولاء بدعاً وأنّه مفسدٌ للأعمال ، والحقّ أنّ هذا من الوهم الذي يقذفه الشّيطان في قلوب البعض مستغلاً قلّة الفقه أو ضيق الأفق . وأين نحن من قوله تعالى ((إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة وهم راكعون * ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون))7.

ويتفرّع عن ذلك توجّسٌ من طاعة الدّاعية قيادته حين يخالف قرارها رأيه وقناعته ومشورة قلبه . وهو توجّسٌ صادقٌ شفّافٌ ، ولكن لا بد أن لا يخفَ أنّ الخلاف بين قرار القيادة ورأي الفرد خلاف في الظنيّات - بالغاً ما بلغ الخلاف – ويُقدّم ظنّ القيادة على ظنّ الفرد وذلك لاعتبارات كثيرة من أهمها أنّهم منتخبون من عامّة الدّعاة
- المؤهّلين - فظنّهم وتقديرهم هو ما أفرزته الشّورى ؛ فرؤيتهم العامّة هي الرؤية المرضيّة من غالبية الدّعاة ، كما أنّهم الأقدر على تقدير المصلحة الكليّة وتميز المصالح من المفاسد ، ودراسة القضيّة ضمن السّياق العام لمتطلّبات المراحل المختلفة وضمن المصالح العامّة للدّعوة والأمّة . وطالب الأجر والرضوان من الله تعالى هو من يرجو لدعوته الصّواب والسّداد وهذا في قرار القيادة - المتشكل من غالبية الآراء – آكد وأوثق .

ولا ينبغي للدّاعية أن يتخوّف أنّه بتنفيذه ما يخالف رأيه قد يعصي ربّه ، بل لا بدّ أن يتأكّد أنّه - بإذن الله - هو بطاعته قيادته يرضي مولاه تعالى لأن قرارهم هو الأقرب للحق – والله أعلم - . وعليه أن يعلّم أنّ كلّ مخلوق سيُسأل عن واجباته لا عن واجبات غيره ، وواجبه كفرد هنا أن ينصح ويبلّغ رأيه لا غير . ثمّ أن ينفّذ محتسباً مطيعاً .

هي حظوظ لا حقوق

كثيراً ما يتعذّر الدّاعية بانشغالاته في بيته مع والده أو والدته أو زوجته أو ولده وأنّه يتابع قضاياهم ويسوّي مشكلاتهم فهم رعيّته ولهم عليه حقٌّ كبيرٌ . والمشَاهد أنّنا في الكثير من الأحيان لا نفرّق بين الحقّ والحظّ ، فالحقوق معروفة والأصل أن تحفظ وترعَى ، أمّا الحظوظ فهي كثيرة ، وفي الغالب ما تأخذ حظوظ الأهل - لا حقوقهم - أوقاتنا ، وبحجج كثيرة في أغلبها مصالح نفوس يسوقها الأهل ، يصبح الدّاعية جليس بيته ، حبيس اهله .

في المقابل كم هم مؤسف أن يقصّر الدّاعية مع أهل بيته بحجّة الانشغالات الدّعويّة ، تراه يخرج السّاعات الطّوال ولا يعطي لأهل بيته من أوقاته إلا النّوافل ، لا يهتم بشؤون البيت والأسرة ، ولا يتابع أبناءه وزوجه ، ولا يعبأ بهمومهم وتطلّعاتهم ، يربّي أبناء النّاس وأبناؤه لذلك أحوج ، لذا كان التّوسط والاعتدال والتّوازن من أهم القيم المطلوبة عند الدّاعية ، وما أسهل تحريك العصا من أحد أطرافها وما أشقّه من منتصفها .

تميّز وسموّ

إنّ الدّاعية يلزمه التّميّز والسّمو وأن يأخذ من كلّ علم بطرف ؛ ليتمكّن من التّأثير في الآخرين ، وليحسن الدّعوة والتّبليغ ؛ فالإنسان بطبعه يتقبّل الدّعوة والتّوجيه ممن هو خير منه ، بل سنّة الأشياء أن الممتلء يفيض دون الفارغ ، والأهمّ من ذلك أنّ الإنسان يحكم في الغالب على المنهاج من خلال الأفراد ، فالدّاعية هو سفير دعوته بين النّاس فإن كان مرضيّاً عندهم بعبادته ومسلكه وثقافته وعموم مواقفه كانت دعوته مرضية عندهم مقبولة ، وكم من داعية أثّر لحظه قبل لفظه ، وكم من آخر أساء وهولا يعلم بل وهو يظنّ نفسه محسناً متقناً .

ومن معاني التّميّز الكثيرة سعة الاطلاع والثقافة ، فالدّاعية المؤثر ينبغي أن يتمتّع بثقافة شرعيّة شاملة في العقيدة والفقه والقرآن الكريم وعلومه والسّيرة والحديث وغير ذلك ، فليس مقبولاً أن يجهل الدّاعية أبسط الأحكام الفقهيّة خصوصاً ما يتعلّق منها بأمور الطّهارة والصّلاة والعبادات عموماً ، كما يَحسن أن يضيف إلى ذلك معرفة باللغة العربيّة وعلومها خصوصاً الإملاء وأن تكون له مطالعة في كتب الأدب والشّعر. وأن يجيد النّظر في سير السّابقين معتنياً بسير المرسلين -عليهم السّلام- والصّحابة الكرام - رضي الله عنهم- و السّلف الصّالح - رحمهم الله تعالى- .

---

[7] المائدة ، آية 55 و 56 .

ولا غنى للدّاعية عن زادٍ من كتاب الله تعالى يحفظه ويفقه معانيه ولو بضع أجزاء يتقن معها أحكام التّلاوة والتّجويد ويلازم ذلك حفظ باقة من أحاديث النّبي الكريم – صلى الله عليه وسلّم – وتأمّل قول الإمام الشّافعي – رحمه الله تعالى – حين قال ((من تعلّم القرآن نبل قدره ومن تعلّم الحديث قويت حجّته ومن تعلّم الفقه ... ومن تعلّم اللّغة رقّ طبعه ومن تعلّم الحساب جزل رأيه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه)) .

كما لا بدّ له من ثقافة دعويّة عامّة ، كمعرفته بأهداف ووسائل ومراحل الدّعوة وتاريخها وأهمّ المنعطفات التي مرّت بها والشّبهات التي تدور حولها ، ومعرفته بتراجم قيادة الدّعوة ورموزها ، والمعرفة بأوضاع الدّعوة والدّعاة في الدّاخل والخارج ومعرفة بفقه الدّعوة الفرديّة وفنون الاتصال بالآخرين واستقطابهم والتأثير بهم ، كما تلزمه معرفة بالكتب والأدبيات الإسلامية من دوريّات وتقارير وغير ذلك وأن تكون له زيارات مستمرّة للمكتبة الإسلاميّة . كما ينبغي له اطّلاع ودراية بالجماعات والحركات و الأحزاب الإسلاميّة ومناهجها .

ولا ينبغي أن يهمل الثّقافة العامّة في مختلف المجالات - فالأصل أن يصيب من كلّ ثقافة بحظ - كالتّاريخيّة ويشمل ذلك المعرفة بماضي الأمّة وحاضرها والتّاريخ الحديث وتاريخ العالم . والسّياسيّة كالمعرفة بالتّحديات والمؤامرات والحركات المعادية والتّيارات المنحرفة في العالم الإسلامي ، والمعرفة بالأنظمة السّياسيّة والفكريّة المنتشرة خصوصاً في العالم الإسلامي ، والاطّلاع على أوضاع الأقليات المسلمة . كما يلزمه المتابعة المستمرة للأخبار ، والعمل على الاستفادة من الاختراعات والتقنيات الحديثة .

أمّا التّميّز العبادي فيكون أوّلاً بالإخلاص ((وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين)) [8]، ثمّ بالورع الذي جمعه عليه السّلام بقوله : ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))[9] فهذا يعني التّرك لما لا يعني من الكلام والنّظر والسّمع والمشي والفكر و...((قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين))[10] ، وبصحّة العبادة والبعد عن البدع واتّباع الدّليل والبعد عن تقليد العامّة - ولكم مؤذٍ أن تشوب عبادة الدّاعية البدع - ، وبالقيام بالفرائض والمحافظة عليها لا بأدائها فحسب ، والاستزادة من النّوافل . وهذا جميعه من شأنه إيقاظ القلب وتسريع استجابته .

وأبلغ ما يتميّز به من يتصدّر لهداية البشريّة السّلوك الحسن والالتزام بالأخلاق الإسلاميّة كالصّدق والوفاء والحياء والكرم والأمانة و ... ، وأن يجمّل نفسه بالذّوق الرّفيع وأن يراعي الآداب العامّة وأعراف مجتمعه - فيما لا يتعارض مع الدّين - . والابتعاد عن مواطن التّهم والشّبه هو من أهمّ ما يحفظ سمعة الدّاعيّة ويذب عن عرضه ، ويجب على الدّاعية أن ينمّ منظره عن مخبره في اللّباس والزّينة وسائر الأحوال وأن يُعنى بالنّظافة في كلّ شيء فالمنظر عنوان ، ولكم تقيّم الأمور من خلال عناوينها .

كما أنّ الاعتزاز بالانتماء للإسلام والدّعوة لا بدّ وأن يكون واضحاً جليّاً ، و وضوح وفهم مبادئ الإسلام وأحكامه عموماً من أهم المميزات الفكريّة للدّاعية . ولكم مستهجنٌ استخدام التّعبيرات الأجنبيّة أو الحديث بالعاميّة . إنّ العربية الفصحى هي لغة القرآن فالواجب أن لا يُستخدم غيرها إلا اضطراراً .

---

[8] البينة ، آية 5 .
[9] رواه ابن ماجة من حديث أبي هريرة .
[10] الأنعام ، آية 162 .

أمّا المعرفة بالإنسان وأنماط الشخصيّة وخصائص المراحل العمريّة ومتطلّباتها المختلفة ، والقدرة على الحوار والنّقاش والإقناع والتّفاوض ، والعلم بفقهي النّصيحة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، والتّدرّب على استيعاب النّاس ، وتسخير الدّاعية لمواهبه وإبداعاته ، واستغلاله للفرص ومجابهته للتّحدّيات ، وقدرته على تعزيز نقاط القوّة وتحجيم نقاط الضّعف ، وقدرته على توظيف خبرات الآخرين والاستفادة منها ، واستخدامه الأمثل لأدوات الاستقطاب والتّجميع ، وتمتّعه بشخصيّة محبوبة قريبة إلى القلوب ، وطموحه إلى المُثُل العليا في كلّ شيء وعدم رضاه بالدّون ، وقوّة إرادته ، والحكم على النّاس والأشياء حُكماً صائباً أو قريباً من الصّواب ، وبعد النّظر والقدرة على التّحليل ، واستخدام فقه الأولويّات ، والموازنة بين المصالح والمفاسد وفيها ، هي صفات وعلوم وفنون تضاعف الكسب الدّعوي وتثريه .

وأمّا أخيراً

فما أردت في هذه السطور القليلة إلا أن أنصح لك وللدّعاة الجدد – ثبّتكم الله - وللشّباب المقبل على هذه الدّعوة المباركة ، فالدّين النّصيحة ، ، إذ هم أكثر المستهدفين الذين تلقى لهم الشّراك وتعرض عليهم الأراجيف ، فرأيت أن أبيّن بعض المعاني أراها واضحة عندي ، مشرقة في نفسي ، لعلّها تزيل لبساً ، أو تهدي حائراً أو تثبّت قلباً مضطرباً ، وفيما كتبت لم أرم الحصر أو الإحاطة ، إنّما هي أفكار مصطفاة وخواطر طلقة ، هُيّء لي أنّها أولى ما تحتاجه ويحتاجه الشّباب .

وإن كنت أكتب هذه الكلمات وأنا خجلٌ من هذه الدّعوة المباركة أن يكتب عنها أمثالي ممن باعهم قصير وضعفهم كبير ، ثم أتألّم لها وهي الدّعوة الزّاخرة بالعلماء والمفكرين التي خرّجت للأمّة القادة والعلماء والشّهداء توضع في كفّة وتوضع بعض الشّبهات والأراجيف في الكفّة الأخرى -عند البعض- فترجح الكفّة الأخرى .

وما دفعني لكتابة ما كتبت إلا حب الخير لك و للمسلمين ورجائي أن يوفقنا الله ويلهمنا السّداد والصّواب وأن يتجاوز عنّا ... والله خيرٌ حافظاً .

((وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنّا للغيب حافظين))[11]

[11] يوسف ، آية 81 .